الفكر الإسلامى
بين العقل والخرافة

إسماعيل المهدوى

المسألة الرئيسية
(الدين والعقل

الاسلام أكثر الأديان تعلقا بالعقل وانصرافا عن الخرافة ، يدل على ذلك أن المعجزة الوحيدة التى طرحها النبى صلى الله عليه وسلم لاثبات رسالته لم تكن من نوع الخوارق السحرية. فالقرآن أولا وقبل كل شىء كتاب يحوى أفكارا تقبل الفهم والدراسة والمناقشة . وفى الحديث أن السحر احدى الكبائر التسع بعد القتل والزنا . وكان النبى يرفض أى اتجاه منحرف لتقديس شخصه ، بل يرفض المديح فيقول : « لا تطرونى » ،لكن التقليد الأعمى خلق حجابا كثيفا من الجهل والشعوذة وصل الى درجة تقديس أهل البيت وتاليه بعضهم . يحكى ابن حزم« أن قوما من جماعة عبد الله بن سبأ أتوا الى على بن أبى طالب فقالوا له : أنت هو ، فقال لهم : ومن هو ؟ قالوا : أنت الله . فاستعظم الأمر وأمر بنار فأججت وأحرقهم بالنار ، فجعلوا يقولون . الآن صح عندنا أنه الله ، لأنه لا يعذب بالنار الا الله . » !

والمسألة الفلسفية الأولى فى أى فكر دينى هى مسألة العقل .فالمفهوم الدينى القائم على العقل يكون قوة ثورية فعالة . أما المفهوم المعارض للعقل ، فيسقط فى الخرافة والتعصب والتجهيل ، وينتهى آخر الأمر الى تبرير نفسه بسلاح الارهاب .

والعقل هو القدرة على النظر فى الأشياء والأفكار ، للوصول الى الحكم الصحيح عليها ، واكتشاف ترابطاتها واستخلاص قوانينها . والاتجاه العقلى هو الذى يؤمن بأن العقل يملك حقا مطلقا على كل شىء فى الأرض أو فى السماء ، وفى الجسم أو فى النفس . وقد كان هذا ـ كما سنرى ـ هو

اتجاه مفكرى المعتزلة ، فلاسفة العقل والانسان فى الاسلام ، وأرقى المفكرين العقليين فى تاريخ الأديان • أما الاتجاه اللاعقلى ، فينكر سلطان العقل ويفرض عليه القيود والحدود . أو يصطنع بدلا منه وسائل غير طبيعية للوصول الى معرفة خاصة من نوع سرى غير مكشوف • وفى هذا الاتجاه ظهر فى الفكر الاسلامى طريقان : طريق السمع أو التقليد ، أى التسليم الأعمى بنص الخبر المتواتر عن السلف وتضييق حدود الرأى والاجتهاد ، وكان يمثل هذا الطريق ـ على ما سنرى ـ معظم رجال الحديث والفقه فى القرنين الاول والثانى من الهجرة • وكانوا يقولون عن الامام أبى حنيفة لمجرد أنه نادى بالرأى الى جانب الكتاب والسنة والاجماع : « ما رأينا أجرأ على الله من أبى حنيفة » ، وكانوا يبررون الجهل قائلين : « كلمة لا أدرى ، هى نصف العلم • » وعلى هذا القول علق أبو حنيفة ساخرا : « فلتقولوا اذن لا أدرى مرتين فيكتمل لكم العلم ! » •

والطريق الثانى المعارض للعقل هو طريق الالهام والنور الروحانى الذى يصل ـ كما يقول القشيرى ـ الى « مرتبة الاطلاع على الغيب » • وكان هذا طريق الصوفية فى الاسلام •

أما فلاسفة الاسلام التقليديون الذين أخذوا بمذاهب الفلسفة اليونانية القديمة ، فكانوا يخلطون العقل بالالهام كما يظهر فى «الحكمة الاشراقية » عند ابن سينا ،ويصرون على التمييز بين نوعين من العلم : نوع للعامة والرعاع ، ونوع للخاصة الحكماء • ولهذا انتهت الفلسفة التقليدية فى الاسلام الى الذوبان الكامل فى الصوفية ، كما نجدها عند السهروردى المقتول وابن عربى

وفى نظرة سريعة ، نستطيع اذن أن نقول ان مسألة العقل هى مفتاح التمايز فى اتجاهات الفكر الاسلامى الذى واجه نفس المسألة فى صور متنوعة :

العقل والنقل ـ الرأى والحديث ـ الاجتهاد والتقليد ـ النظر والطاعة ـ العقل والالهام ـ العقل السوقى والعقل الالهى ••• الخ •

وانقسم الفكر الاسلامى من هذه الزاوية الى عدة اتجاهات أبرزها :

١ ـ المعتزلة (العقل قبل أى شىء وفوق كل شىء) •

٢ ـ أنصار السنة وأصحاب الجمود (النقل والتقليد والطاعة) •

٣ ـ الصوفية (الالهام اللاعقلى)

٤ ـ الفلاسفة والفرق الخارجة على الاسلام (الحكمة الالهية والعلم لأهل العلم) •

فلنستعرض الآن بعض هذه الاتجاهات •

الجمود والتخلف الحضارى

(أنصار السنة فى عهد بنى أمية)

وقف أحد الخطباء أمام معاوية

بن أبى سفيان يوم البيعة لابنه يزيد يقول :

« أمير المؤمنين هذا · » وأشار الى معاوية · « فان هلك فهذا · » وأشار الى يزيد · « فمن أبى فهذا » وأشار الى السيف ·

فقال له معاوية : « اجلس فأنت سيد الخطباء » ·

هذا الحادث المعروف يعبر بوضوح عن الفلسفة الرسمية لدولة بنى أمية (٤٠ ـ ١٣٢ هجرية) فلسفة السيف لا الكلام والمناقشة · فقد كانت دولة حرب وفتح تحمل الدين الجديد عن عصبية عنصرية لا عن اقتناع عقلى ، وتسيطر بعصبيتها على شعوب متنوعة لم تتجاوب بعد مع الفاتحين العرب ولم تهضم بعد لغتهم وأفكارهم وعقيدتهم · وكان السادة الجدد منفصلين عن حضارات هذه البلاد التى فتحوها ، حضارات الفرس والروم والهند ، وعقائدها المجوسية والهندوكية والمسيحية ، وما انتقل اليها جميعا من فلسفة اليونان ومدرسة الاسكندرية · فالعلاقة بين شعوب هذه البلاد والاقلية العربية كانت تتمثل فى أمرين ، هما الخضوع ودفع الضريبة · أما فيما عدا ذلك ، فكان العرب يعيشون فى عالم شبه منفصل عن العجم · ولم يكونوا قد عرفوا أى علم من علوم الدين أو اللغة التى ظهرت بعد ذلك فى الدولة العباسية · فالحديث مثلا لم يبدأ تدوينه بشكل منظم الا عام ١٤٣ هجرية ، رغم أن عمر ابن عبد العزيز الاموى ثم المنصور فى بداية الدولة العباسية كانا قد أصدرا أوامرهما مرارا الى علماء الأمصار بجمع الحديث وتدوينه · وكان المحدثون والفقهاء الأوائل رواة يتمتعون بذاكرة غنية يستخرجون منها دون تصرف أو اجتهاد أخبار النبى والصحابة وأحاديثهم · ومعظم هؤلاء الرواة من محدثين وفقهاء عاصروا النبى والصحابة · ولهذا كانوا ينسبون الاحاديث فى النهاية الى أنفسهم فيقولون : حدثنى فلان عن فلان · بل ان تفسير القرآن لم يكن يتخذ منهج الشرح والتعليق لكنه كان يلتزم النقل التقريرى · وتسمى هذه الطريقة « التفسير بالمنقول » يقول المفسر : « حدثنى فلان عن فلان عن الرسول أو عن أحد الصحابة ، أنه قال ان كلمة كذا فى هذه الآية معناها كيت وكيت · »

قال الامام الشافعى فى ذلك الوقت :

« أن يلقى الله تعالى العبد بكل ذنب ، خير من أن يلقاه بشىء من علم الكلام · »

وقال مالك فى ذلك العصر أيضا :

« امض الحديث كما ورد ، بلا كيف ولا تحديد » ·

وسئل مرة عن كيفية الاستواء على العرش ، فقال :

« الاستواء معقول ، والكيف مجهول ، والايمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة » ·

رآه أحدهم يبكى بكاء مرا على فراش

الموت فسأله عن سبب ذلك فقال ·
« آود لو أضرب مائة سـوط عن كل مسألة أفتيت فيها برأى · »

وفى المناظرة التى جرت بين رجال المعتزلة وأحمد بن حنبل أيام المأمون طالبوا أن يناقشهم بالحجج العقلية ، فرد عليهم ببساطة قاطعة :« ماأدرى ما هذا ·· انه ليس فى كتـاب الله ولا سنة رسوله » ! يقصد أن عبارة « الحجج العقلية » لم ترد فى القرآن ولا فى الحديث ·

ومع ذلك لم يتورع بعض أصحاب التقليد عن اسقاط مبادىء أساسية فى النظام الاجتماعى الذى جـرى عليه التقليد والسنة، مع أن أصواتهم كانت ترتفع بتكفير المجتهـدين من الفقهاء والمتكلمين · يتضح ذلك فى الأمثلة التالية :

١ ـ جباية الجزية ممن يدخـل فى الاسلام فى الاقاليم المفتوحة · فقد لاحظ ولاة بنى أمية (الا فى عهد عمر بن عبد العزيز) أن معظم أهـل هذه البلاد يدخلون فى الاسـلام فتنقص حصيلة الأموال التى يجبونها فنسخوا السنة الاسلامية وأصروا على جباية الجزية منهم ·

٢ ـ اقطاع الاراضى الواسـعة ـ خصوصا فى العراق ـ لذوى الحظوة والمقربين من العرب يستصلحونهـا ويزرعونها بواسطة العبيد والمعدمين·

٣ ـ جلب الزنوج الافريقيين من شرق افريقيا للعمل فى الاقطاعيـات الجديدة ، مع ان الاسلام كان يشترط فى الرق أن يكون بعد حرب شرعية ضد الكفار ·

وخلاصة الأمر أن أساس التقليد لم يكن تقديس الماضى حقا ،بل الخوف من المستقبل · الخوف مما يسمونه تزعزع عقيدة العامة ، أى انحرافهم الى الشك والتمرد ·

وكان حكام بنى أمية سعداء بهذا الجمود الذ ى يسهل لهم قياد الأمة · فقد كانوا يسـتهدفون توسـيع الامبراطورية لاتطوير المجتمع ونظـام الحكم · فكان الجمود والتجهيل والعداء للعقل انعكاسا طبيعيا لظروف هـذه الدولة البدوية ·

●

وفى أواخر القرن الأول ، استنفذ بنو أمية دورهم باسـتكمال الفتح واخضاع الامصار ، وبرزت احتياجات جديدة لتطوير المجتمع ونظام الحكم، والانتقال من الزراعة البسـيطة فى الشام الى الزراعة الواسعة فى العراق على أساس نظام متقدم للرى وتشغيل العبيد ·وظهرت الثمار الأولى للتفاعل بين العرب والعجم · وانتشر أبنـاء الموالى فى الأمصار يسحرون الناس بما حصلوه من المعرفـة التى تمزج الثقافات القوميـة القديمة بعقيـدة الفاتحين الجدد · يحكى أن هشـام ابن عبد الملك استعرض مع أحد رجاله فقهاء الامصار فوجدهم جميعـا من الموالى ما عدا واحدا فقط · والموالى هم بشكل عـام ثمرة التزاوج بين العرب والعجم ، أو كما يطلق عليهم

المتكلم المتزمت عبد القاهر البغدادى « أبناء السبايا » ٠

والحقيقة أنه لم يخطر قط على أذهان الجنود البدو فى فجر الاسلام أن يحافظوا على «نقاء» الدم العربى الجاهلى ٠ ومن ثم كان الامتزاج محتوما وكان طبيعيا أن يحل الموالى فى كل مكان محل أصحاب الأنساب النقية، وأن تتخذ العروبة مضمونا اسلاميا واسعا بدلا من الاصل الجاهلى الضيق فقد أصبح الاسلام بوتقة انصهرت فيها حضارات هذه المنطقة ـ حضارات البلاد التى دخلت فى الدين الجديد واكتسبت لغته فى تلك الفترة ٠ فالمهمة التاريخية التى حققها البدو الفاتحون هى تحطيم الحواجز السياسية وحواجز الدين واللغة التى كانت تفصل بين أعرق بلاد المنطقة ـ مصر والشام والعراق ـ وذلك بنقل الاسلام ولغة الاسلام اليها ٠ فأصبحت اللغة العربية وأصبح الدين البسيط المجرد من الخرافة والسحر ، وسائل توحيد وانصهار ، تفتح الطريق أمام ظهور حضارة جديدة ٠ وهكذا أصبح الموالى يشكلون الجيل الجديد من العرب المسلمين فى ذلك العصر ٠ أما الأقلية العنصرية ذات الأصل الجاهلى ، فقد بقيت مركزا لدعوات الرجوع الى الماضى البدائى والهجوم على الحضارة والتجديد العقلى اللذين أرسى الاسلام أساسهما فى ذلك العصر ٠

والمهم فى ذلك أن ظروف الجيل الجديد من المسلمين المتحضرين المتأثرين بأنواع متعددة من الثقافة والذين لا تربطهم بالاسلام عنصرية ، أسقطت الشعار الذى كان يرفعه مالك : « السؤال بدعة » ٠ بل أصبح السؤال والمناقشة ضرورة طبيعية ووسيلة للتقريب بين هذه العقول الجديدة وتشكيلها على الدين الوارد من الجزيرة ٠ فى هذا نلمس الفارق مثلا بين أبى حنيفة ـ الذى كان تاجر أقمشة من الموالى فى الكوفة ـ ومالك الذى ولد فى المدينة وعاش فيها ٠ وكان الفقهاء من ذوى الانساب يسألون من يناقشهم فى الاحكام أو ينادى بالرأى : « هل أنت عراقى ؟» وكان مالك يسخر من طريقة الأسئلة فيقول : « هذه سليسلة بنت سليسلة (أى سلسلة من الأسئلة!) ٠٠ فان أردت هذا فعليك بالعراق»

ومن ناحية أخرى ، نجد أن منهج التقليد والاتباع ، أى الجمود الدينى، قتل نفسه بنفسه ٠ ذلك أن اتساع الاسلام وتنوع الجماعات التى دخلت فيه ووفاة الجيل الاول من المسلمين، قضى على المرجع الاساسى للنقل وهو العلاقة الشخصية المباشرة ٠ فانطلقت كل جماعة تخترع من الاحاديث والحكايات ما يحلو لها ، مستفيدة من روح التقديس الجامد التى يتمتع بها كل كلام تقال فيه عبارة « عن فلان من الصحابة أو التابعين » ومع انتشار الفتن استغل الشيعة والعباسيون والأمويون قداسة النقل، فدسوا الأحاديث والروايات التى تخدم مصالحهم ٠ واستفادت من ذلك

أيضا الجماعات التى أرادت أن تكيد للاسلام أو تصوعه على طريقتهـا الخاصة · ومما يحكى أن عبد الكريم ابن أبى العوجاء وضع ٤٠٠٠ حديثا مصنوعا ، وأن حماد الرواية أضاف كثـيرا من الشعر المصـنوع الى المتقدمين ، ويوسـف بن أبى فروة انتحل كثيرا من القصص والاخبـار ونسبها الى العرب الأوائل · فقد كان منهج التقليد بانكاره للعقـل والرأى يحمل عوامل فنائه ، ولا يحمل وسائل الدفاع عن نفسه · واذا كان يرفض منهج سليسلة بنت سـليسلة فكيف كانت تستطيع جماهير المسلمين فى البلاد الجـديدة أن تكشف أكاذيب الرواة المدسوسين دون سـؤال او مناقشة ؟

الحقيقة أن الفكر الاسلامى وصـل فى أواخر الدولة الاموية بالذات ،الى درجة من التفكك كانت كفيلة باعادته الى الجزيرة ، لو لم يخرج له فى ذلك الوقت مفكرون آمنوا بالعقل وحرية الانسان ، وآمنوا بالعدل والحق ، هم المعتزلة ، فلاسـفة الجدال فى المساجد · بل ان الاسلام تحول فى عهد الجمود الأموى الى وسيلة لتبرير سياسة الارهاب وسفك الدماء ·وكان رجال بنى أمية يقولون للناس تبريرا لهذه المذابح : « انما يجرى كل شىء على قدر الله المكتوب » !

وهنا ظهرت لأول مر ةنظرية حرية الارادة فى الاسلام ، تعبيرا عن الدور الثورى الذى يلعبه الفكر العقلى فى المجتمع · يروى المقريزى فى الخطط أن معبد الجهنى وعطاء بن يسـار جاء الى حلقة الحسـن البصرى فى المسجد فقالا له :

« هؤلاء الملوك ـ أى بنو أمية ـ يسفكون دماء المسـلمين ويأخذون أموالهم ويقولون انما تجرى أعمالنا على قدر الله تعالى · »

فقال الحسن : « كذب أعـداء الله · »

وقد كان الحسن البصرى ، أستاذ واصل بن عطاء أول رجال المعتزلة ، كذلك كان وحيد الجهنى صاحب فرقة يطلق عليها القدرية ، لأنهـا تنكر القدر وتقول بحـرية الارادة وقدرة الانسان على الفعل ومسئوليته عما يفعل ، وهى فرقة آخذ عنها المعتزلة وحملوا اسمها أيضا · وفى هـذا تتضح الظروف السـياسية التى خلقت فلسفة العقل فى الاسلام ·

فلسفة العقل وفلسفة الهدم

(المعتزلة والقرامطة)

قامت الدولة العباسية الاولى فى منتصف القرن الثـامن الميـلادى واستمرت الى منتصف القرن التاسع (من ١٣٢ الى ٢٣٢ هجرية)وكانت دولة عمران وحضارة ، عرف فيهـا العرب العلوم ووسائل الحياة المتطورة أخذوها عن الفرس والروم ، وتقدمت الصنائع وتغير أسـلوب الزراعـة فى أرض العراق التى تزرع بالرى لا بالمطر كما كان الحال فى الشام وزاد المال وازدهرت التجارة ·وأقيمت

لأول مرة مصانع متعددة للورق بعد أن كان العلماء يستخدمون الرق والبردى أو يعتمدون على الذاكرة . وأقام الرشيد دارا للكتب فى بغداد ثم أقام المأمون دارا للترجمة أسماها « بيت الحكمة » . وبدأت تظهر معالم الحضارة الجديدة ، فوضعت لأول مرة علوم اللغة والنحو والشعر بواسطة الخليل بن أحمد وسيبويه وحماد ، وكتب التاريخ والفقه والحديث ، وكتب الحكمة والطب والفلسفة . ومع تقدم العلوم ووسائل الحياة ، ازداد تقدم الفلسفة العقلية (فلسفة المعتزلة) حتى أخذت بها الدولة جزئيا فى عهد هارون الرشيد ثم بشكل كامل رسمى فى عهد المأمون . وفى هذه الفترة ، وصلت الحضارة الاسلامية الى قمة ازدهارها الفكرى والسياسى .

وفى نهاية عصر بنى أمية ، ترتب على انهيار منهج النقل والتقليد تفكك الرابطة الوحيدة التى كان مقدرا لها أن تجمع شعوب هذه المنطقة ، وهى الاسلام . ولم يستطع السيف وحده أن يوحد هذه الاشتات المتنافرة التى لم تنصهر بعد . واتخذ التفكك مظهرين بارزين : الأول انتشار الزندقة ـ أى العودة الى المجوسية وغيرها . والثانى انتشار الفتن السياسية ، سواء على أيدى فقراء العرب المتطرفين وهم الخوارج ، أو على أيدى العجم المضطهدين الذين اندسوا فى دعوة الشيعة ثم مشتقاتها . وقد قام المعتزلة فى المستوى الفكرى بمقاومة الزندقة ، كما قاوموا منهج التقليد . وفى المستوى السياسى والاجتماعى ، قاوموا خوارج البدو كما قاوموا تطرف العجم . وكان مبدأهم فى ذلك كله : العقل منهجا للتفكير والاسلام رابطة للمجتمع الجديد . ولهذا كان شعار « المنزله بين المنزلتين » معبرا عن رفضهم للتطرف . فمثلا كان معظمهم يأخذون بفكرة انتخاب الامام لكنهم يرفضون أسلوب التدمير الهمجى الذى مارسه الخوارج ضد الدولة ، فلم يخدموا به سوى غلاة المتطرفين من أعداء الاسلام . ووضع المعتزلة شرطين أساسيين للثورة السياسية المسلحة ، فقالوا « انه لا يجوز الخروج على الامام الجائر الا لجماعة لهم من القوة ما يغلب على ظنهم أنها تكفى للنهوض وازالة الجور ، ثم لا يصح الخروج الا مع امام عادل لا يتولى انفاذ الأحكام غيره » .

وقد التزم المعتزلة هذا المبدأ بالفعل ، فاستخدموا سيوفهم فى أواخر الدولة الأموية ، لتأييد اليزيد ـ الخليفة المستنير ـ ضد الوليد الذى اشتهر فسقه وظلمه .

وكانوا يشعرون بحاجة المجتمع الجديد فى ذلك الوقت الى فلسفة تؤمن بحرية الانسان وتفرض حقوقه على الدين والدنيا ، دون أن تسقط فى حركات الهدم والتدمير كالخوارج ، ودون أن تسقط فى الحركات الانفصالية الاقليمية كفرق الشيعة . ولهذا أعلن

واصل بن عطـــاء حركة الاعتزال للدفاع عن وحدة الامة بعـد اندلاع فتنة الأزارقة فى البصرة والأهواز · أطلق عليهم أنصـــار السـنة اسم « مخانيث الخوارج » (١) ، لأنهـــم اتفقوا مع الخوارج فى أفكارهم عن انتخاب الامام وادانة الظلم ورفضوا اتجاهاتهم الارهابية المتعصبة ·

●

وفى بداية عهد العباسيين استخدم الخلفاء الجدد السيف مثل ســـابقيهم ضد الزندقة والفتنـــة ، فأنشـــأ المهدى قسما خاصا لمكافحة الزندقة يشرف عليه مسئول يسمى «صاحب الزنادقة » · لكن هذا الاسلوب لم يحقق نجاحـــا فى مجتمع متحضر ، واستمر انتشار الزندقة والثورات فى مصر والعراق ، والتجأ الزنادقة والمتآمرون الى النفاق والدس للدولة وفى عهد المأمون ، اتسعت فى أطراف البلاد حركة انفصالية خطيرة تسمى الحركة البابكية ، وكانت تتـــكون أساسا من الاكراد وتحظى بالتأييـد والمساعدة من الباطنية الاسماعيلية. ويقول البغدادى ان الدعوة الباطنيـة ظهرت فى عهد المأمون فى ســـجن الوالى بالعراق ، أسسها عبد الله بن ميمون القداح ،وسميت باسم الباطنية لأنها تؤمن بالامام الباطن أو المحجوب الـــذى لايراه اتبـــاعه ولا يعرفون اسمه ، أو لأنها تظهر الاســـلام وتبطن الزندقـــة · وتخصصت من الباطنيـــة فرقة سرية للاشـــتغال بالفكر والثقافة أطلق عليها اســـم « اخوان الصفا » · كذلك ســـميت الباطنية باسم « الاسماعيلية » لأنها تقول بأحقية الخلافة لأحد أحفـــاد على بن أبى طالب هو اسماعيل بن جعفر الصادق ، كان أبوه قد أبعده لفسقه · وكانت الحركات الانقلابية فى كثير من البلاد تبدأ برجـل يدعى أنه من نسل اسماعيل المذكور ، كما فعل مؤسس الحركة الفاطميـــة فى المغرب ، وكما فعـــل مؤسس فرع الاسماعيلية فى واسط فى جنـــوب العراق ، وهو الفرع الذى تولى قيادته حمدان قرمط فأصبح يسمى حركة القرامطة ، وانتهى الى اقامة جمهورية البحرين والاستيلاء على الحجر الاسود من الكعبة وذبح آلاف الحجاج فى مكة والى هذه الفرق ، ينتسب اليـــوم اسماعيلية آغا خان فى الهند ·

واضح اذن أن الحركة البابكية ثم الدعوة الاسماعيلية والقرامطة فروع فى شجرة واحدة ، هى ثورة الفرس والاكراد ضد الخلافة الاسلامية فى بغداد · ومن المؤسف أن أفكار هذه الفرق عن المساواة وهجومها الباطل على الاســـلام ، جعل بعض المفكرين المعـاصرين يعدونهـــا ممثلة للفكر التقـــدمى الحر فى ذلك العصر ، مع أنها فى الحقيقة أساءت الى الحضارة وأساءت الى الفكر الحر · فقد لعبت دورا أساســـيا فى تحطيم الدولة

(١) البغـدادى « الفرق بين الفرق » ص ١١٩ ·

الموحدة التى كانت تمثل اذ ذاك ـ دون منازع ـ مركز الحضارة الانسانية وكان من الممكن أن تلد نظاما اجتماعيا جديدا يسبق نظام عصر النهضة فى أوروبا · ومن ناحية أخرى كانت انتصاراتها الجزئية ، تؤدى باستمرار الى تشديد قبضة الرجعية الفكرية فى بقية العالم الاسلامى · وعندما سقط العالم الاسلامى فى ظلام التفكك والتجهيل الرجعى ، لم تترك هذه الفرق شيئا هاما فى التاريخ الفكرى أو الحضارى لشعوب المنطقة · ولعل المقارنة بين فلسفة المعتزلة وفلسفة الباطنية ، تدل على أنه من الخطأ أن نحكم على هذه الفرق بمجرد الانبهار بمطالبها بالمساواة وتدمير الخلافة العباسية ·

١ ـ الباطنية :

كانت الباطنية حركة انقلابية سرية ، تدور فلسفتها حول وسائل استخدام العامة (أى الجماهير) سواء لتحقيق الاصلاح الاجتماعى كما فعل فرع القرامطة فى البحرين ، أو لتأسيس خلافة جديدة كما فعل الفرع الفاطمى فى المغرب · وقد ظل القرامطة فترة طويلة يدينون بالولاء للامام الفاطمى المعصوم ، المهدى المنتظر عبيد الله · وكانوا يصطنعون السحر والمعجزات ويستخدمون المشعوذين من رجال التصوف ليجمعوا العامة حولهم ، بدليل أن الحلاج كان واحدا من صنائعهم · فأساس منهجهم هو « الاتباع دون النظر » ـ أى الخضوع الأعمى لمن يسمونه أمام الزمان المعصوم · وكانوا يبدأون مع من يريدون جذبه لجماعتهم باثارة شكه فى كل شىء ، لكى يوهموه بعد ذلك أن الطريق الوحيد لليقين والراحة العقلية ، هو تنفيذ تعاليم الامام المعصوم ، ولهذا يطلق عليها ايضا اسم « التعليمية » · فهم يستخدمون العقل للهدم واثارة الشك لا للبحث عن الحقيقة ، لأن الحقيقة عندهم مايراه الامام · وهكذا يتضح أن أفكارهم أقرب الى الفاشية لا الى الاشتراكية كما يتصور البعض ، مهما كانت أهدافهم الاصلاحية فى السياسة · ولهذا خرجت منهم معظم فرق الدراويش والمتصوفة المجوس ·

وكانت الحركة تتكون من تسع مراتب أو مستويات ، يتدرج الأعضاء فى الصعود فيها بعد المشقة ومرور الزمن · ولم تكن الاهداف السياسية تكشف للأعضاء الا بعد المرتبة الرابعة · أما الأهداف الفلسفية ـ أو الناموس الالهى كما كانوا يقولون ـ فلا يعرفها الا من وصل الى المرتبة الثالثة من الاعضاء ، وهى فى رأيهم مرتبة الانبياء أيضا · وكانت جماعة اخوان الصفا السرية تمثل مكتب الدعاية لحركة القرامطة ، أى مفكرى القرامطة · ويأخذ اخوان الصفا كثيرا من نظريات الفلسفة الأفلاطونية الجديدة ، وهى فلسفة غير دينية لكنها مغرقة فى الروحانية· وهم شديدو الايمان بالتنجيم وتأثير الكواكب فى حياة الناس · ويقسمون

الوجود الى مراتب ، مثل العقل الفعال والعقل المنفعل والهيول الأولى، وكلها أوهام خرافية اخترعها الفلاسفة اليونانيون فى العصور المتأخرة بعد اتجاههم الى التصوف • ويزعم بعض الكتاب المعاصرين انهم كانوا يقولون بالتطور • والحقيقة انهم يحتقرون تماما عالم المادة والحيوان ، ويتحدثون فى مملكة الحيوان عن مراتب من نوع آخر ، هى مراتب النفوس • ولهذا يقولون أن الفيل والفرس أقرب الى الانسان فى المرتبة من القرد ، لأن نفس الفيل أو الفرس أرفع من نفس القرد • وكانوا ينكرون الاسلام ويزعمون أنهم يقدمون بدلا منه عقيدة تعلو على كافة الأديان • والحقيقة انهم لا يقدمون سوى فلسفة روحانية ملفقة تتحدث عن العقل الفعال الخرافى وتنكر العقل الانسانى الحقيقى • ولقد رسم اخوان الصفا بهذه الفلسفة معالم الطريق الذى سار فيه بعد ذلك فلاسفة الاسلام التقليديون كالفارابى وابن سينا • طريق انكار الدين لحساب فلسفة أكثر تطرفا فى الروحانية ، والدعوة الى عقل خيالى مجرد على حساب العقل الانسانى المادى ، واحتقار العامة لحساب أقلية تنكشف لها الحقيقة ، والتلفيق بين كافة الأفكار على حساب الحقيقة والفكر القومى •

يقول اخوان الصفا فى الرسالة الثانية والعشرين :

« الرجل الكامل يجب أن يكون فارسى النسب عربى الدين عراقى الآداب عبرانى المخبر مسيحى المنهج شامى النسك يونانى العلم هندى البصيرة صوفى السيرة » •

٢ ـ المعتزلة :

فى مقابل هذا التلفيق الروحانى المفتعل ، كان المعتزلة يطرحون منهجا آخر لتوحيد الامة ، هو منهج العقل والايمان بقدرة الانسان • ثم ان فلسفة القرامطة التى تأخذ بمنهج التقليد الاعمى للامام المعصوم لم تكن تستطيع أن تقدم بديلا لمنهج التقليد السنى • بل الحقيقة أن من قال بالتقليد ، أولى به أن يقلد النبى والصحابة من أن يقلد أشخاصا مجهولين من أحفاد على بن أبى طالب، ولهذا كانت فلسفة المعتزلة هى الفلسفة الوحيدة القادرة على تحرير الفكر الاسلامى واطلاق طاقات المجتمع •

قال أحمد أمين فى كتابه القيم « ضحى الاسلام » عن موقف المعتزلة أمام أهل السنة :

« لقد أطلقوا للعقل العنان فى البحث فى جميع المسائل ، فجعلوا له الحق فى أن يبحث فى السماء وفى الأرض ، وفى الله وفى الانسان •• وبالغوا فى سلطان العقل أمام من لا يقرون للعقل بسلطان ، بل يقولون نقف عند النص • وقال المعتزلة بحرية الارادة وغلوا فيها أمام قوم سلبوا الانسان ارادته حتى جعلوه كالريشة فى مهب الريح • وعندى أن الخطأ فى القول بسلطان

العقل وحرية الارادة والغلو فيهما ، خير من الغلو فى أضدادهما · وفى رأيى انه لو سادت بين المسلمين تعاليم المعتزلة فى هذين الامرين ، أعنى سلطان العقل وحرية الارادة ، لكان لهم موقف آخر فى التاريخ غير موقفهم الحالى وقد أعجزهم التسليم وشلهم الجبر وقعد بهم التواكل ·· ولعل المعتزلة كانوا يؤملون أن يصبح الاعتزال دين الدولة الرسمى ، فتتحرر عقول العامة فلا يخافون من جن ولا يصدقون بغول ، وعلى العموم لا يشلهم الخوف من الخرافات ولا يشلهم الخوف من الله لأن الله فى نظر المعتزلة ليس حاكما مستبدا بل هو تعالى قد الزم نفسه بقوانين العدل » (١) ·

ولا يخفى على القارىء أن أخطر ما فى هذه الفلسفة اذا قورنت بموقف القرامطة والفلاسفة التقليديين ، أنها كانت تؤمن بالعامة وتطرح مبادىء العقل والانسان على جماهير المسلمين فى المساجد والاسواق ، لا على الاقلية المتفلسفة فى « المراتب » العليا · وقد بلغ من تعظيمهم لقدرة الانسان أن قال عنهم أحد المؤرخين المتزمتين هو أبو العباس المقرى :

« ادعى فرعون الربوبية على الكشف ـ أى صراحة ـ وادعى المعتزلة الربوبية على الستر ، فقالوا : ما شئنا فعلنا · »

(١) الجزء الثالث ص ٦٨ ، ٧٠ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ·

وقالت عنهم دائرة المعارف الاسلامية انهم أرادوا أن يقيموا « لاهوتا أرضيا » ·

وقال الشهر ستانى عن ابراهيم النظام أبرز رجال المعتزلة :

« ان أكثر ميله الى تقرير مذاهب الطبيعيين من الفلاسفة دون الالهيين »

وهو يميز فى هذه الاشارة بين الفلسفة المادية ، والفلسفة الروحية الميتافيزيقية عند أفلاطون وأرسطو

وكان الجاحظ الاديب والمفكر المعتزلى المعروف يقول أن « العالم الحقيقى يجب أن يجمع بين علم الكلام والعلم الطبيعى » ·

ويرى المعتزلة فى العقل الانسانى رأيا لم يصل اليه أى مفكرين آخرين فى الاسلام أو المسيحية ، ورغم أن كتب المعتزلة أحرقت ولعنت ، فقد عثر المحققون فى اليمن فى السنوات الأخيرة على موسوعة فلسفية للقاضى عبد الجبار أبرز رجال المعتزلة المتأخرين ، تتكون من عشرين مجلدا أكبرها مجلد كامل يضم ٥٤٠ صفحة عن العقل وأهميته · يقول القاضى عبد الجبار عن أهل السنة :

« والعجب أن الرسل لم يقبل قولها الا باقامة البراهين ، ويجوز عندهم قبول قول مالك والليث من غير دلالة » ·

ويقول أيضا : « النظر فى الأدلة ، فوق العلم بالأدلة » ـ أى أن البحث فوق المعرفة ·

ويقول : « ان البليد لو فهم طريق العقل لتحقق له العلم بالعقل

والبليد اذا اجتهد استطاع أن يعلم ويفهم » ، وأن الفرق بين العامة والمفكرين فرق فى « المران »والخبرة واستخدام العبارات وترتيبها (١) · « فاستحضار العلوم يصعب على البليد ، ولكن لا نقول ان عقله لا يحتمل هذه العلوم · » (٢) · « فالعلم لا يحتاج الا الى صحة العقل » · ولهذا أوجب الله النظر والمعرفة على جميع العباد ·

ويرى المعتزلة أن التفكير العقلى ـ أو النظر ـ هو أول واجب فرضه الله على الناس· بل يختلفأبو هاشم الجبائى فى ذلك ، فيقول ان الشك هو الواجب الأول · « فالشك قبل النظر ، لأنه لا نظر من غير سابقة شك · »

ولقد فاخرتأوروبا كثيرا بالشك الذاتى عند ديكارت ، وها هو مفكر اسلامى أصيل قبل ديكارت بثمانية قرون يجعل الشك العقلى أول واجبات المسلم المؤمن ·

ولا يتسع المجال هنا لعرض هذه الفلسفة العميقة · وفى كلمات سريعة يمكن أن نقول انهم رفضوا الجبر وما يقال عن تقدير الأرزاق دون جهد ، وقالوا ان الانسان يختار أفعاله ويحدد رزقه بجده وعمله · وقالوا ان الله لا يقدر الا على العدل، ولا يريد الا ما فيه صلاح البشر ولا يخرق قوانين الوجود التى وضعها والتى تقبل ادراك العقل · وقال ابراهيم النظام بعدم فناء المادة أو استحداثها ، وأن الخلق أو الافناء معناه أن يحل وجود محل وجود آخر · وفى رأيهم أن الروح جسم لطيف ينتشر فى الجسد كانتشار الرائحة فى الورد · وكانشعارهم: العقل قبل النقل ، ووصل هذا الشعار بعد ذلك الى القول بأن العقل يقرر الحقائق أولا ثم يتأول الآيات التى قد تتعارض معها ·

(١) المغنى ـ الجزء ١٢ ص ١٣٧ ·
(٢) نفس المرجع ص ١٣٩ ·

اتجاهات الفكر الاسلامى بعدالمعتزلة

(تصوف الفلسفة وتفلسف الجمود)

شهد عصر المأمون كما رأينا ظاهرتين بارزتين تعبران عن قدرة أعداء الدولة اذ ذاك على تحريك العامة ضدها : الأولى هى انتصار جيوش بابك الكردية ثم اندلاع الفتن والاضطرابات الطائفية فى كثير من الامصار ، والثانية انتشار حلقات الباطنية الاسماعيلية · وبعد رحلة قام بها المأمون فى بعض البلاد، عاد الى بغداد ليصدر قرارا باعلان الاعتزال فلسفة رسمية للدولة ، وامتحان القضاء والفقهاء والمحدثين فى موقفهم من القرآن ، وهل يقدسون نصوصه الى درجة الوثنية والجمود الاعمى ، أم يأخذون بمنهج المناقشة العقلية للدين · وعرفت هذه القضية فى التاريخ باسم «محنة خلق القرآن» وكانت المشكلة تتمثل ظاهريا فى الخلاف بين دعوتين :

١ ـ دعوة القائلين بأن القرآن

مخلوق ولم يكن موجودا مع الله منذ الأزل ·

٢ ـ دعوة القائلين بقدم القرآن أو الذين يرفضون البحث فى كونه مخلوقا أو غير مخلوق ·

لكن الحقيقة أن الخلاف الاساسى كان يدور بين الدعوة الى اخضاع كل شىء للمناقشه العقلية العلنيه فى المساجد والطرقات ، والدعوة الى تقديس النص دون تفكير خوفا على معتقدات العامة · يحكى أن الوالى قال للبويطى لكى يخلى سبيله أثناء امتحانه : «قل ان القرآن مخلوق فيما بينى وبينك » · فرد عليه : « انه يقتدى بى مائة ألف ، ولا يدرون المعنى» ·يقصد أن العامة سيتطاولون بذلك على النصوص دون فهم ·

والسؤال الآن : لماذا اتخذ المأمون هذا القرار الحاسم واستخدم فى تنفيذه التهديد بالسيف ؟

السبب أن المأمون أدرك بذكائه سر انتشار الفتن الطائفية وامكانيات النجاح الساحق أمام الحركة الباطنية الجديدة ، هذا السر هو الخرافة وتصديق الاحاديث والتعصب وتقديس النصوص ولو كانت من اصطناع أعداء الدولة · ولعل تعصب الجماعات الرجعية المتخلفة فى اليمن اليوم ، صورة حية للدور الذى تلعبه الخرافة والجهل فى اثارة الفتن والاضطرابات فامام اليمن المخلوع يستخدم الجمود والشعوذة لكسب الانصار وتحريكهم ضد الدولة الجديدة ·

روى المؤرخ ياقوت أن رجلا اسمه ابن الشباس ادعى الالوهية ، فاستخف عقول العامة بما رواه لهم فانقادوا له وعبدوه · لمثل هذا السبب ، قرر المأمون أن يهز عقائد العامة وأن يفرض عليهم استخدام عقولهم ·

وعندما مات المأمون أوصى أخاه المعتصم بأمرين : الاول أن يحشد قوى الدولة للقضاء على الحركة البابكية وأنصارها ، والثانى أن يستمر فى امتحان الناس فى خلق القرآن · وفى عهد المعتصم سحقت البابكية ، واستمر الاعتزال حتى نهاية حكم الواثق خليفة المعتصم · بل ان الواثق توسع فى فرض هذه الفلسفة ، خصوصا فى مراكز الاحتكاك بين الاسلام والاديان الاخرى · وخلال حكم الخلفاء الثلاثة شاهدت قصور بغداد لاول مرة فى التاريخ مناظرات علنية واسعة بين ممثلى الفكر العقلى الاسلامى ـ المعتزلة ـ وممثلى الفكر المسيحى والمجوسى والزنادقة وأهل الجمود الدينى ·

لكن الامر لم يستمر كذلك · فلم يكد المتوكل يتولى الحكم حتى انقلب على المعتزلة وأصدر اعلانا رسميا صريحا بالغاء العقل والعودة الى جمود الجهل · يروى المسعودى هذا القرار قائلا :

« ولما أفضت الخلافة للمتوكل ، أمر بترك النظر والمباحثة فى الجدال ، وأمر الناس بالتسليم والتقليد ، وأمر الشيوخ بالتحديث (أى رواية الحديث) واظهار السنة » ·

ولهذا أطلق المؤرخون على المتوكل اسم « محيى السنة » ٠

وكانت هذه الخطوة تمثل نهاية العصر الذهبى للحضارة الاسلامية ، عبرت عن نفسها سياسيا بمصرع المتوكل بعد ذلك على أيدى مماليكه الاتراك وسقوط الدولة العباسية الاولى عام ٢٣٢ من الهجرة ٠

لماذا اذن أقدم المتوكل على هذه الخطوة الخطيرة فى تاريخ الفكر ؟

أهم الاسباب ما يلى :

١ ــ كان نفوذ المماليك الاتراك قد تزايد فى بلاط الخليفة ، وهم يختلفون عن الموالى الفرس المثقفين من أمثال ابن المقفع والبرامكه ، ولا يثقون فى المنطق ولا فى الفلسفة ٠

٢ ــ كان تهديد الدولة باستخدام السيف لفرض فلسفة العقل خطأ استفزازيا أفاد منه دعاة الجمود فى اثارة العامة ضد هذه الفلسفة ، مع أن الدولة لم تستخدم السيف بطريقة جدية ضد الرجعية الدينية ٠ وهكذا كان التهديد بالسيف أكثر ضررا وأقل فعالية ٠ وليس أدل على ذلك من قصص البطولة التى تصورها أنصار السنة ونسبوها الى أحمد بن حنبل لموقفه أثناء امتحانه ٠

٣ ــ كان الخلفاء أنفسهم لا يؤمنون ايمانا حقيقيا بالفلسفة الجديدة ، بل يتخذونها سلاحا فكريا ضد مثيرى الفتن ٠ والاستمرار فى الدعوة للاعتزال ، كان لابد أن يصل الى نقطة حاسمة يتحتم فيها تنفيذ مبادىء الاصلاح والعدل والمساواة التى تتضمنها فلسفة المعتزلة، أو الانتكاس عليها وضربها ٠ لكن الظروف الموضوعية حددت الطريق الثانى ٠

ننتقل الآن الى اتجاهات الفكر الاسلامى بعد انكاس الموكل وسقوط الدولة العباسية الاولى وتفكك أقاليم المجتمع الاسلامى ٠

أما الباطنية فقد انتصرت فى عدة مراكز ، واضطرت الأجيال التالية من المعتزلة المستضعفين الى مهادنتها سياسيا ٠ لكن برز فى الفكر الاسلامى اتجاهان جديدان هما اتجاه الفلاسفة واتجاه الرجعية الجديدة ٠

١ ــ الفلسفة التقليدية فى الاسلام

خرج بعد المعتزلة اتجاه يفضل الاشتغال بالفلسفة بعيدا عن الجماهير وبعيدا عن الدين (مع الاقتصار على التوفيق الشكلى بينهما ذرا للرماد فى العيون) ٠ هذا هو اتجاه الفلاسفة التقليديين الذى بدأه الكندى ٠ وكان الكندى يميل الى المعتزلة ويشتغل بترجمة كتب الفلسفة والطب ثم اضطهد بعد انتكاس المتوكل ٠ ويبدو أن الكندى ومن بعده الفارابى وابن سينا ، شعروا بأن التركيز على الفلسفة والترجمة أهون خطرا من ارتياد المساجد والاشتراك فى المعارك الكلامية الجماهيرية وتوجيه الرأى العام ٠ ومن هنا ظهرت عندهم بشكل واضح فكرة احتقار العامة والدعوة الى تأليف الكتب الفلسفية « المضنون بها على غير أهلها » [٥]

وكان هذا الاتجاه امتدادا لفلسفة أفلوطين المتصوفة ، على زعم أنهـــا فلسفة أرسطو · ولهـذا أغرقوا فى الافكار الخرافيـــة الغامضـــة عن الاسطقسات الالهية والعقل الهيولانى وعقول الافلاك وما الى ذلك مما نقلوه عن فورفوريوس وغيره · وترك الكندى مثلا رسالة فيما يسمى « علم أحكام النجوم » تطورت بعد ذلك الى قواعد التنجيم التى صاغها تلميذه أبو معشر (ولا يزال المشتغلون بالشـــعوذة يتداولون كتابه حتى اليوم !) ·

أما الفارابى فقد انتهى الى التصوف وكان مثل ابن سينا يفتخر على المعتزلة والطبيعيين بأن منهجه الفلســـفى استنباطى يرفض الاستقراء والنظر فى عالم الخلق · وكان العقـل الذى يحوى المعرفة فى رأيهم هو عقل الفلك الاخير ، ومنه يهبط فيض المعرفة على روح الانسان فيما يشبه « الخطفـة الالهية » · ولهذا كان ابن ســـينا وابن رشد يهاجمان مايسميانه « العقل السوقى » عنـــد المعتزلة ويرفضان منهجهم فى استخدام العقل فى الدين لأن الدين كما يقول ابن رشـــد فى مناهج الأدلة جعل للامتثال والطاعة · وهاجم ابن سينا فى « رســـالة عن القدر » فكرة المعتزلة عن حرية الارادة وجريان العقل على أفعال الله تعالى ، فقال :

« لا يسأل عما يفعل ، يعلم ذلك الراسخون فى العلم · ولو جعلنـــا للعقل سلطانا فى مسألة القدر لجعلنا الجناب الاقدس ـ أى الله ـ عرضـة للعذر واللوم » ·

ولهذا كان ابن ســـينا من أنصار السنة ، كما أنه اتجه الى التصوف فيما أسماه « الحكمة المشرقية » · وكان يخترع الاســـاطير عن كفاح الروح للافـلات من سجن الجســـد الساقط ، بعكس ابراهيم النظام الذى كان يقـــول ان الروح جسم غازى لطيف !

●

وليس غريبا أن يركز المستشرقون اهتمامهم على هؤلاء الفلاسفة · فهم يمثلون الامتداد التقليدى للفلسفـة اليونانية وحلقة الاتصـال بينها وبين الفلســفة المســيحية فى أوروبا · والمستشرقون فى هذا الموقف مخلصون لأصلهم الاوروبى · أما المستشرقون السوفييت ، فيبحثون عن المـــادية عند هؤلاء الفلاسفة على أساس أنهم لا يشتغلون بالدين ، وعندما يعجزهم لبحث وســـط ركام الروحـــانية والتصوف ، يضطرون الى تجـــاهل أعمالهم المثالية والاقتصار على الافكار المادية المحدودة التى أوردوها فيمـــا كتبوه عن الطب ـ مثلا ، وهى أفكار تدخل فى تاريخ الطب أكثر ممـــا تدخل فى تاريخ الفلسفة · والحقيقة أن احتقار الجماهير بعـــد تدهور المعتـــزلة ، كان لابد أن يـــؤدى الى تدهور المنهج العقلى ·

٢ ـ فلسفة الجمود

لكى تنجح الرجعية فى فرض منهج

النقل والغاء منهج العقل ، كان لابد أن تتكيف مع الظروف الموضوعية الجديدة . ويبرز فى هذه الظروف عنصران :

أولا ـ ان انتشار الفرق المدسوسة على الاسلام جعل التقليد المطلق غير مأمون العواقب فكان لابد من استخدام العقل للتمييز بين التقليد المطلوب وهو تقليد أنصار السنة والتقليد المرفوض مثل تقليد الامام المعصوم . ولهذا حل شعار « النقل قبل العقل » محل الشعار الأموى « النقل لا العقل » .

ثانيا ـ انتشار فلسفة العقل وأفكار المعتزلة فرض على أصحاب التقليد الجديد أن يؤسسوا منهجهم على هدم المعتزلة ، فيستخدمون العقل لهدم العقل بطريقة الثورة المضادة من الداخل . وقد قام بهذه الثورة المضادة فعلا أبو الحسن الاشعرى ، وكان من رجال المعتزلة وابن زوجة أبى هاشم الجبائى شيخ المعتزلة فى أوائل القرن الرابع الهجرى .

ويلخص الشهرستانى أفكار الاشعرى ضد المعتزلة قائلا :

« لا يجب على الله تعالى شىء ما بالعقل لا الصلاح ولا الاصلح . وهو المالك فى خلقه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد . فلو أدخل الخلائق بأجمعهم الجنة لم يكن حيفا ، ولو أدخلهم النار لم يكن جورا . اذ الظلم هو التصرف فيما لا يملكه المتصرف . وهو المالك المطلق . والواجبات كلها سمعية . والعقل لا يوجب شيئا ولا يقتضى تحسينا ولا تقبيحا » .

وتبلور الاتجاه السنى الاشعرى الجديد عند أبى حامد الغزالى (٤٥٠ ـ ٥٠٥ هجرية) فقد استطاع بدراسته الواسعة أن يجمع الجوانب المعارضة للعقل فى كافة الاتجاهات ويصوغ منها فلسفة متكاملة ، تحتوى على عناصر من المنطق والتصوف، بل ومن الباطنية أيضا ، كل ذلك فى اتجاه تدعيم النقل وهدم العقل . وفى رأيه أن العقل الانسانى يبحث عن الحقيقة كما يبحث البعوض عن الضوء حتى يتهافت عليه فيهلك !

أما المنهج الذى يدعو اليه فيحدده بشكل قاطع صريح فى كتاب له اسمه « الجام العوام عن علم الكلام » . يقول :

« يجب على عموم الخلق ، الجمود (كذا !) على ألفاظ هذه الأخبار والامساك عن التصرف فيها بالتفسير أو التأويل » (١) .

وفى هذا الكتاب الغريب يطلق على العامة اسماء أخرى هى «الرعاع» و « الجهال » و « الصبيان » . ثم ليته يقصد بالعوام ، الأميين الذين لا يقرأون ولا يكتبون ، بل العجيب حقا أنه يقصد بهم أيضا « الادباء والمشتغلين بالنحو والحديث والفقه (٢) ولا يتيز عن العوام سوى أفراد معدودين يسميهم الغزالى «أهل

(١) الجام العوام ـ المطبعة المنيرية ـ ص ١٣ .

(٢) الجام العوام ـ ص ١٦ .

الغوص » ، يقذف الله فى قلوبهم نور العلم الربانى ٠

ومع ذلك أطلق مؤرخو السنة على الغزالى اسم حجة الاسلام ٠ وقد كان الرجل بالفعل حجة ٠ لكن عند من : عند الخليفة المستظهر بالله وعمال الدولة وخاصة المجتمع ـ حجتهم الفكرية فى تجريد العامة من الدين والدنيا معا ٠

احياء الاعتزال فى العصر الحديث

(محمد عبده وأحمد أمين)

يقول العقاد عن الشيخ محمد عبده انه كان مع المعتزلة فى تحكيم العقل والقياس ، وانه لا يكاد يختلف عن الامام الغزالى ! (٣) لكن الحقيقة أن الشيخ محمد عبده كان على نقيض الغزالى تماما لأنه كان معتزلى التفكير حتى قبل أن يدرك ذلك عندما وضع فى شبابه شرحا لتفسير كتاب « المواقف » للايجى ٠ فى هذا الشرح الذى نشر أخيرا فى مجلدين ، يتبنى محمد عبده الافكار الاسياسية للمعتزلة ، رغم أنه كان يعلق على تفسير سنى أشعرى معارض للمعتزلة ٠ فهو مثلا يتمسك بأن المعرفة بالبرهان الصحيح تسبق المعرفة بالكتاب والسنة ، ويرفض القول بالجبر ، ويوافق على خلق القرآن ٠ (٤) وتبدو أهمية منهج محمد عبده ، اذا ذكرنا أن مقدم كتابه هذا ـ وهو أستاذ حالى فى كلية أصول الدين ـ هاجم فى مقدمته الشيخ الذى مات منذ ستين عاما لمبالغته فى تقدير قيمة العقل !

وعندما تولى محمد عبده منصب مفتى الديار ، تعرض للهجوم الشديد من المتعصبين لأنه أفتى بجواز استخدام البرانيط لتوقى الشمس ، وأفتى بجواز أكل لحم البقر البرى الذى يقتل دون تسمية الله عليه ٠ وكان يقول لتشجيع الاجتهاد العقلى :

« الخوف من الضلال هو عين الضلال » ٠

يذكر أحمد أمين فى كتابه عن محمد عبده أنه كان يقول : « وهبت حياتى لاصلاح العقيدة الاسلامية وتنقيتها مما علق بها من الخرافات والاوهام » ٠

وحدد هذا الهدف بأنه « تحرير الفكر من قيد التقليد واعتبار الدين ضمن موازين العقل البشرى ، وانه على هذا الوضع يعد صديقا للعلم باعثا على البحث فى الكون داعيا الى احترام الحقائق الثابتة » ٠

أما أحمد أمين ، فكان فى كتبه عن الفكر الاسلامى وعن الشيخ محمد عبده ، مدافعا عن فلسفة المعتزلة ، بل ربما كان أول من أنصف هذه الفرقة من أساتذة الفلسفة ٠

منذ سنوات قليلة أصدر قدرى طوقان عضو المجمع العلمى بدمشق

(٣) محمد عبده ـ سلسلة أعلام العرب ـ ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠ ٠

(٤) أنظر المجلد الاول ص ٢٥ ـ ٢٦ والمجلد الثانى ص ٤٩١ ، ٥٣٥ ، ٥٥٥ ، ٥٦٩ ، ٥٨٤ ٠

والمجمع اللغوى بالقـــاهرة كتـــابا بعنوان « مقام العقل عند العرب » ، قال فيه عن المعتزلة :

« ان احياء روح المعتزلة فى اعزاز العقل وتمجيـــده والرجوع اليـــه باعتباره الحكم والدليل ، يوجد الجرأة ويفتح الآفاق أمام الفكر فلا تقوم مع هذا حركات رجعية ولا تنجح محاولات لايقاف مجرى التقدم • ذلك أن هذه الحركات لا تثمر الا فى مجالات كبت الفكر وتقديس التقليد » •

والحقيقـــة آن الدرس الاول فى تاريخ الحضارات ، آن فلسفة العقل والعلم هى الســـلاح الفكرى للتقدم التنـــوير فى العصر الذهبى للدولة الحضارى • هكذا كان المعتزلة فلاسفة الاسلامية القديمة • وفى هذا الطريق يجب اليوم آن يسير الفكر الدينى فى الدولة الاشتراكية الجديدة لجماهـــير المسلمين •